الاجتهاد

مجلة متخصصة تعنى بقضايا الدين والمجتمع والتجديد العربي الإسلامي

العدد الثامن والعشرون

السنة السابعة

صيف العام ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

رئيسا التحرير

الفضل شلق ورضوان السيد

مدير التحرير المسؤول

محمد السماك

تصدر عن :

دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر

ص . ب . : 5581/14 ــ بيروت ــ لبنان ــ تلفون : 866666، 862205

ساقية الجنزير ــ بناية برج الكارلتون ــ الطابق الثاني

الجاليات المسيحيّة بالمغرب الإسلامي خلال عصر الموحِّدين

ابراهيم القادري بوتشيش

من المحقق أنه لا يمكن قراءة تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ـ وكل العصور الأخرى دون شك ـ بمعزل عن «أسرته» المتوسطية. ومن المسلَّم به أيضاً أن البحر المتوسط لم يكن عبر مختلف حقب التاريخ نقطة فصل بقدر ما كان أداة تواصل ولقاء، يشهد على ذلك ما عرفته ضفتاه من أطوار متعاقبة من التوتر والسلم، والمد والجزر، تمخض عنها في نهاية المطاف رسم المعالم الأساسية، والانعطافات الكبرى لمسارهما التاريخي.

وإذا كانت الأمثلة تتعدَّد حول المواجهات المسلحة التي استعرت بين بلاد المغرب الإسلامي، وبعض البلدان المتوسطية المسيحية، فإن حالات التعايش السلمي بين شعوب المنطقتين لم تنعدم بالمرة. بل إن الصراعات التي تأججت أحياناً لم تحل دون سعي المنطقتين إلى تغليب مصالحهما المشتركة، ومن ثم خلق مناح التسامح والتساكن، والعيش جنباً إلى جنب. ولا غرو فإنّ عدداً من المغاربة عبروا البحر ليقيموا في عدد من البلدان الأوروبية المسيحية[1]. كما أن خليطاً من الشعوب المتوسطية ـ إيطاليين وفرنسيين

---

(1) Gisel Chovin: Apercus sur les relations de la France avec le Maroc, des origines a la fin du moyen âge. Hesperis. T.XLIV 1957 3è et 4è tr., p: 269.

ويذكر هذا الباحث أن الرحالة «بنجامين» لاحظ أثناء مروره بمدينة مونبلييه بفرنسا بعض المغاربة.

وإسبانيين وبرتغاليين وغيرهم ـ وجدوا في بلاد المغرب القبلة الملائمة، والمكان المناسب لتنشيط حركتهم التجارية، أو تقديم خدماتهم العسكرية والفنية، فعاشوا بين أحضان المغاربة في جوٍ من التسامح والسلم، وهو ما تسعى هذه الورقة إلى معالجته، والوقوف على معالمه الكبرى، دون ادّعاء الإحاطة الشاملة، أو القول الفصل في الموضوع.

ومن الجدير بالتنبيه أن هذا العمل لن يكتفي بمعالجة أوضاع المسيحيين «الأهالي»[1] أو من يعرفون بأهل الذمة، أي أولئك الذين كانوا يقيمون إقامةً دائمة فوق أرض المغرب الإسلامي فحسب، بل سيهتم كذلك بـ «الجاليات» الأوروبية المسيحية عموماً، ممن يمموا وجوههم شطر هذه المنطقة، مدفوعين إما برغبة تجارية، أو مهنية أو عسكرية، وإما مضطرين ـ تحت ظروف الأسر والنفي ـ إلى العيش في المغرب بكيفية مؤقتة، فضلاً عن بعض الإرساليات التبشيرية التي يندرج ضمنها الأساقفة وخدام الكنيسة المبعوثون بصفة دورية من قبل البابوات، وإن كنا لا ننفي التداخل الواقع أحياناً بين هؤلاء والمسيحيين الأهالي عند المعالجة والتحليل.

ومن القضايا التي يجب وضع الإصبع عليها قبل طرق هذه الإشكالية كذلك، هو أنه كثيراً ما كيلت للعصر الموحدي تهمة اضطهاد المسيحيين ـ بمن فيهم الجاليات التي نحن بصدد دراستها ـ وحسبنا أن باحثاً أوروبياً جعل من هذا العصر نهايةً للمسيحية وهو ما تسعى هذه المداخلة إلى مناقشته ودحضه.

ونحن في غنى عن التذكير بما يعتور هذا الموضوع من صعوبات، رغم أنه

---

(1) رغم أن عدد المسيحيين قارب الانقراض بعد الفتح الإسلامي للمغرب، فقد استمرت بعض الجماعات. ويشير البكري وهو يتحدث عن تلمسان أنه كان لا يزال بها ـ إلى عصره ـ بقية من المسيحيين بكنيستهم. أنظر البكري: المُغرب في أرض افريقيا والمغرب، طبعة الجزائر 1911، (ط 2)، ص: 76.
وانظر كذلك مارمول الذي يذكر بأن قبائل زواوة كانت لا تزال إلى عصره تفتخر بأصلها المسيحي: مارمول: افريقيا، طبعة الرباط 1984، ج1، ص: 94 (الترجمة العربية).

لم يعد خافياً على أحد اليوم أهمية العمل الذي قام به Maslatrie والمتمثل في نشر مجموعة هامة من الوثائق اللاتينية التي تخص العلاقات بين ضفتي البحر المتوسط[1]، وهو إنجاز رائع ينير كثيراً من الزوايا المظلمة. ومع ذلك، فإنه لايمكن للباحث أن يتقدم بغير حذرٍ شديد في هذا المجال، وذلك بسبب ندرة المصادر والوثائق، وطبيعة تعاملها مع هذا الموضوع.

فالاسطوغرافيا العربية لاذت بالصمت تجاه أفراد جاليات اعتبرتهم «غرباء». وحتى في المناسبات القليلة التي أوردت أخبارهم بكيفية عفوية، فإنها ذكرتهم بنصف الكلمات، وبمرارة تُفهم من السياق العام الذي اعتبرهم مسيحيين ينتمون إلى (دار الحرب). في حين أن بعض الإشارات «المطولة» التي يمكن العثور عليها في أمهات المصنفات التاريخية أتت ـ أحياناً ـ كورقة للدعاية من قبل أصحابها ضد الدولة التي جاءوا على أنقاضها، وهذا شأن من عدوا قضية وجود هؤلاء (الفرنج) في (دار الإسلام) نقيصةً من نقائص الدولة الموحدية[2].

أما المصادر والوثائق اللاتينية فهي حسبما يستشف من بعض ما نشره Maslatrie وغيره، فإن بعضاً منها تميز بالتحامل على المغاربة، فاستنزل عليهم اللعنات[3]، وشوه الأحداث ونفخ فيها، فضلاً عما تميز به من غلوٍّ في تصوير الحدث الذي وصل أحياناً إلى ذروة الفكر الخرافي، وإن كانت بعض

(1) أنظر كتابه: Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chretiens avec les Arabes de l'afrique septentrionale au moyen âge. Paris 1866-1875.

(2) هذا ما نلاحظه مثلاً عند المراكشي الذي عاصر الدولة الموحدية والذي يؤكد قطعاً بأن أي كنيسة لم تر النور في المغرب الموحدي، بينما تحدث ابن أبي زرع وابن عذاري وكذلك ابن خلدون عن وجود شرائح مختلفة من الشعوب المتوسطية وخاصة الحاميات العسكرية. ومعلوم أن هؤلاء مؤرخون مرينيون وإذا كانت بعض الإشارات قد وردت عندهم حول هؤلاء في العصر المريني فإنها لم تستعمل بالمفهوم القدحي.

(3) كثيراً ما نجد هذه المصادر تستعمل مصطلح les infideles لنعت مسلمي المغرب، وهذه ظاهرة واضحة في كتاب مارمول الذي ينعتهم بالكفار، ويشوه كثيراً من الحقائق التاريخية. انظر مثلاً: افريقيا، ج2، ص: 56.

الرسائل البابوية رغم تجنّيها على الحقيقة تفيد من حيث لا تدري.

ومع ذلك، يمكن في ضوء النصوص المتاحة بعد لَمِّ شتاتها، وتعريتها مما علق بها من شوائب، ووضعها في إطارها الصحيح، عن طريق ربطها بظرفيتها التاريخية، والسياق العام لأحداث البحر المتوسط، والاستعانة ببعض الدراسات الغربية أن نخرج ولو بصورةٍ تقريبية عن أسباب وجود الجاليات المسيحية في بلاد المغرب العربي إبان عصر الموحدين، ودراسة وضعيتها وأدوارها في المجتمع المغربي.

أولاً: أسباب ودواعي وجود الجاليات المسيحية في بلاد المغرب

إن تحليل الظرفية التاريخية التي أدت إلى تقاطر الشعوب المتوسطية على بلاد المغرب، حريٌّ أن يكشف أسباب هذه «الهجرات» الجماعية. غير أن المجال لا يسمح بتتبع كل الجزئيات والتفاصيل، لذلك سنكتفي برسْم الملامح العامة.

لا جدال في أن البلدان المتوسطية في هذه المرحلة (القرن 6 ـ 7هـ/ 12 ـ 13م) كانت تلج عصر النهضة، وبدأت ذيول الإقطاع فيها تنحسر لصالح الإرهاصات البورجوازية بما تعكسه من وحدة وتماسك وقوة على الصعيد السياسي. وأخذت البورجوازية المتوسطية تتطلع نحو النفوذ والسلطان، فانتعشت لذلك الحياة الاقتصادية، وأصبحت التجارة تشكل حجر الزاوية في هذه النهضة، حيث غدت أساطيل الجمهوريات الإيطالية تجوب البحر المتوسط طولاً وعرضاً، وأفضى كل ذلك إلى تكوين «فائض» وجب البحث عن أماكن لتسويقه. ولما كان المغرب العربي أقرب المناطق إلى المدن المتوسطية التجارية، فضلاً عن وجوده في طريق الذهب، فقد رنا التجار بأبصارهم إليه، وبادروا إلى عقد معاهدات سلمية وتجارية مع حكامه[1]. ولما

---

(1) ابتداءً من النصف الثاني من القرن 6هـ/ 12م بدأ تجار مرسيليا و Roussillon ومونبيليبه بعقد معاهدات تجارية مع المغرب أنظر Gisele: op, cit, p: 269. وعن النشاط التجاري للجالية المرسيلية في سبتة خلال القرن 13 أنظر:

= Caillé: Les Marseillais à Ceuta au 13è siècle dans: Melanges d'histoire et d'arch. de l'occ.

كانت الكنيسة ترعى هذه المصالح التجارية وتباركها، فقد بعثت بأساقفتها وقسّيسيها إلى مختلف المدن المغربية لتنظيم حياتهم الدينية، فكان هذان المظهران أساساً في الحضور المتوسطي المسيحي بالمغرب.

وعلى غرار الجمهوريات الأوروبية المتوسطية، بدأ المغرب يعرف في العصر الموحدي ـ لكن بوتيرةٍ أقلّ ـ «صحوةً» تجارية بفضل إحكام الموحدين قبضتهم على طرق التجارة الصحراوية، وتحقيق المركزية السياسية، فوفّروا بذلك الشرط الاقتصادي للانفتاح على العالم المتوسطي. كما أن دور الوسيط التجاري الذي أصبحوا يضطلعون به، وكذا المراهنة على التجارة بعيدة المدى لبناء قوة الدولة، وكان عليهم ـ لخلق شروط إنجاح مشروع سياستهم المتوسطية ـ العمل على تمتين علاقاتهم مع التجار المتوسطيين ونهج سياسة التسامح معهم واستقطابهم نحو مدنهم وموانئهم الساحلية.

يتبين إذن أن الرغبة في إنجاح المشروع التجاري الموحدي عن طريق إقامة علاقات تجارية مع دول البحر المتوسط كانت القناة الأولى التي جلبت الجاليات المتوسطية إلى المغرب. لكن هناك قنوات أخرى من بينها ضرورة تقوية «الجهاز الأمني» للسلطة الحاكمة عن طريق توفير كتائب عسكرية أجنبية واستعمالها كحرس خاص للخليفة أو كفرقة مجندة لإخراس الأصوات المناوئة.

مسألة جلب العناصر المرتزقة لحماية الأسرة الحاكمة ليست قضيةً جديدة إذ ظهرت منذ عصر المرابطين[1]. وقد شكلت في الفكر الخلدوني موقعاً هاماً، حيث لاحظ بذكائه المعروف أنها تقترن بانتقال القبيلة السائدة إلى مرحلة الترف، وتشتد في أوقات الأزمات لما تستدعيه الظروف من ضرورة التصدي لتمردات القبائل واستئصال شأفتها، وبالتالي تدعيم عصبية القبيلة السائدة. ولما كانت الدول المتوسطية ـ وخاصة إسبانيا ـ أقرب المناطق إلى المغرب، فإن جلب فرق عسكرية منها بات مسألةً بديهية.

Musul. Alger 1927 T II, pp: 21-31. =

(1) مجهول: الحلل الموشية، طبعة الدار البيضاء 1979، ص: 25.

إن أول إشارة لظهور كتائب عسكرية من البلدان المتوسطية المسيحية في العصر الموحدي تقترن بالخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور (580 ـ 595هـ/ 1184 ـ 1198م)، فقد شيد هذا الحاكم الموحدي قصرين كبيرين حسب رواية مارمول[1]، أو 11 إلى 12 قصراً حسب رواية الوزان[2]، وأسكن فيها عدداً من الجند الرومي بلغ عددهم حوالي الألف[3]، بالإضافة إلى نسائهم وأبنائهم. ويبدو أنه استعملهم كحرس خاص، لا كجند نظامي إذ كان الهدوء والأمن مُخيِّمَين في عهده.

وفي عهد الخليفة المنتصر (610 ـ 620هـ/ 1213 ـ 1223م)، وهو العهد الذي اقترن ببداية الأزمة الموحدية بعد معركة العقاب سنة 609هـ، تزايدت الكتائب العسكرية النصرانية، وأصبحت تتكون من مجموعتين: أُولاهما كانت توجد في مكناسة تحت إمرة قائد قشتالي يدعى «ابن أخت الفونسو»، وثانيتهما كانت توجد بمراكش تحت قيادة أمير برتغالي[4].

والسمة الرئيسية لهذه الكتائب العسكرية هي أنها لم تعد كما كان الحال في العصر المرابطي متكونة من أسرى الحروب، بل من رجال أحرار التزموا بخدمة الخلفاء الموحدين من تلقاء أنفسهم[5]. وإذا كنا لا نعرف بالتدقيق المناطق التي

(1) مارمول: م.س. ج2، ص: 50.

(2) وصف أفريقيا، طبعة الرباط 1980، ج1، ص: 105.

(3) هذا إذا جمعنا المجموعتين معاً اللتين يذكرهما الوزان. ويذكر Mensage استناداً على ابن أبي زرع بأنه في عهد يعقوب المنصور تم ترحيل 3000 أمرأة وولد. لكن فاته أن الخليفة الموحدي عفا عنهم وأطلق سراحهم. أنظر:
Mensage: Le christianisme en Afrique. Alger 1915, p: 14. وعن الحقيقة التي أغفلها انظر ابن أبي زرع: روض القرطاس، طبعة الرباط 1973، ص: 228.

(4) Dufourcq: Les relations du Maroc et de la Castille pendant la première moitié du XIIIè siècle. Revue d'histoire et de civilisation du Maghreb, Juillet 1968 no 5. p: 41.

(5) De Genival: L'eglise chretienne de Marrakech au 13è siècle, p: 73-Hesperis 1927.

أتوا منها، فمن المؤكد أنهم قدموا من مختلف مناطق البلدان المتوسطية[1].

وقد أشارت المصادر العربية إلى الوجود المسيحي داخل الجيش الموحدي. فالمراكشي[2] يشير بأن للمصامدة «جنداً من سائر أصناف الناس كالعرب والغز والأندلس والروم».

غير أن استخدام الجيش النصراني في العصر الموحدي كان أكثر كثافة وحضوراً في عهد الخليفة المأمون (627 ـ 629هـ/ 1229 ـ 1231م) الذي تجذرت الأزمة في عهده حتى أصبح عهداً مترعاً بالاضطرابات، الشيء الذي حدا به إلى الاستنجاد بملك قشتالة قصد إمداده بحامياتٍ عسكرية لاسترجاع سلطته في مراكش.

وتختلف الروايات حول عدد هؤلاء الجند الذين استقدمهم حيث جعلهم كل من ابن أبي زرع[3]، والناصري[4] اثني عشر ألفاً، بينما حصرهم ابن عذاري في 500[5]، في حين لم يذكرهم ابن خلدون إطلاقاً. وقد ناقش أحد الباحثين[6] هذين الرقمين، فرجح أن يكون عدد ال 500 هو الصحيح، بينما نميل إلى الاعتقاد أن الإثني عشر ألفاً هو الأقرب إلى الصحة لعدة اعتبارات: **منها** أن ابن أبي زرع[7] في روايةٍ أخرى وردت عند ذكره بيعة الخليفة الموحدي عبد الواحد الرشيد أشار إلى أن قائد الروم كان يركب في عشرة آلاف من إخوانه. فمن المحتمل أن يكون عدد الجيش النصراني قد انخفض من 12 ألفاً إلى 10 آلاف إبان الفترة الفاصلة بين الخليفتين. كما أن حملةً تستهدف استعادة السلطة كانت تفترض استقدام هذا

(1) خوسي اليماني، الكتائب المسيحية في خدمة الملوك المغاربة ص: 35، دعوة الحق. ع5، 1972.
(2) المعجب، طبعة البيضاء (ط7)، ص: 34.
(3) روض القرطاس: ص: 251.
(4) الاستقصاء، طبعة البيضاء 1954، ج2، ص: 237.
(5) البيان المغرب، قسم الموحدين، البيضاء 1985، ص: 284.
(6) Dufourcq: Loc, op, cit, p: 43.
(7) روض القرطاس، ص: 254.

العدد. ثم إن العدد الموجود في عهد يعقوب المنصور وصل إلى الألف في جو ساده الأمن والرخاء، فكيف بالنسبة لخليفة أصبح عهده يتسع فيه الخرق على الراقع.

ويظهر أن المؤرخين ابن أبي زرع والناصري لم يصيبا الحقيقة في تقييمهما للحدث حين اعتبرا المأمون (أول من أدخل عسكر الفرنج أرض المغرب واستخدمهم بها) ذلك أن النصوص التي سبق عرضها تكشف عكس ذلك[1].

ومهما كان الأمر، فإن الوجود المسيحي أصبح يفرض نفسه عن طريق هذه الحاميات العسكرية، إلا أن هناك قناةً أخرى تدعم بها هذا الوجود ألا وهي مسألة الأسرى عن طريق الحروب أو القرصنة البحرية التي بلغت ذروتها في هذا العصر حتى أنه «بلغ الحال من كثرة سبي الآدميين أن يباع بيضاوان من الروم بسوداء من الوخش في بجاية»[2].

وبالإضافة إلى عملية القرصنة البحرية، تعززت أعداد المسيحيين بعمليات الترحيل الإجبارية من الأندلس نحو المغرب، فإذا كان المرابطون قد قاموا بترحيل عدد من مسيحيي الأندلس، في تواريخ متفرقة، فإن الموحدين نحوا منحاهم، فقاموا بعملية ترحيل سنة 566هـ/ 1170م[3].

يضاف إلى كل هذا مجيء بعض البعثات الدينية أو الإرساليات التبشيرية التي بعثتها الكنيسة الرومانية لخدمة الجاليات الموجودة في المغرب، فاستقرت به بصفة مؤقتة، ولعبت أدواراً هامة في تاريخ المسيحية بالمغرب.

وبهذه الموجات المختلفة، تعددت الجاليات المسيحية المتوسطية على

(1) أنظر هامش رقم 7، وانظر كذلك: ابن عذاري: البيان المغرب، طبعة بيروت 1980، ج4، ص: 23.

(2) الغبريني: عنوان الدراية، طبعة الجزائر 1328، ص: 45.

(3) Lagardere: Communautés Mozarabes et pouvoir Almoravide en 519 H/1125 en Andalus. p: 99. Studia Islamica 1988.

أرض المغرب، وأصبحت تعيش جنباً إلى جنب مع المغاربة، وتساهم في حياتهم اليومية، فكيف كانت وضعيتها وما هي أدوارها وتأثيراتها في المجتمع المغربي؟

ثانياً: أوضاع الجاليات المسيحية بالمغرب في العصر الموحدي

ساهمت عدة عوامل في تحديد وضعية الجاليات المسيحية بالمغرب وإعطائها مكانتها المتميزة. ففضلاً عن الدواعي والأسباب التي تم عرضها، وكلها كانت تصب في اتجاه رعاية هذه الجاليات وتحسين أوضاعها، هناك عوامل أخرى ساهمت في تكريس هذه الوضعية نذكر منها:

1 ـ حماية الدولة الموحدية لها انطلاقاً من محافظتها على مصالحها وخاصة التجارية.

2 ـ تدخل البابوية المستمر لحماية رعاياها في المغرب.

3 ـ كانت المعاهدات المعقودة بين الجمهوريات المتوسطية والدولة الموحدية تلزم هذه الأخيرة احترام حقوق رعاياها والعمل على تحسين وضعيتهم.

4 ـ قوة الدول المتوسطية التي تنتمي إليها شعوبها إذ غالباً ما كانت تلوح بالتهديد وتستعمل ورقة سحب كتائبها العسكرية في حالة انعدام رعاية مصالح رعاياها.

5 ـ تسامح الخلفاء الموحدين خاصة الأواخر منهم.

إستناداً إلى هذه العوامل، سنحاول معتمدين على نصوص عربية ولاتينية ملامسة وضعية هذه الجاليات في الميادين الدينية والاقتصادية والاجتماعية.

الوضعية الدينية للجاليات المسيحية:

لا يخامرنا شك في أن هذه الوضعية استفادت من روح التسامح التي شاعت في ربوع بلاد المغرب. ولعل أبرز مظاهر هذه الروح العالية سماح الخلفاء الموحدين لمختلف الفئات المتوسطية المسيحية من تجار وجند وأسرى وغيرهم ببناء كنائس وممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية ورحابة صدر، فمتى

بدأ تأسيس الكنائس، وما هي ظرفيته؟

إذا اكتفينا برواية المراكشي[1]، فإننا نقع أسارى تصور غير صحيح يفيد بأن الموحدين لم يسمحوا ببناء أي كنيسة. ولكن عذر هذا المؤرخ يكمن في أنه عاصر الدولة الموحدية، وكان يخشى عاقبة تسجيل حدث كان يعتبر مخجلاً ومهيناً لها رغم بعده عنها وهو يؤلف كتابه. غير أن المؤرخين المرينيين لم يجدوا حرجاً في أبراز هذه الظاهرة وإعلانها.

ولا سبيل إلى الشك في صحتها لأن المصادر المسيحية أكدتها، إلا أن الفرق بين النصوص العربية والمسيحية هو أن الأولى تقرن الحدث بعهد المأمون، بينما الثانية ترجع بذلك إلى عهد الخليفة يعقوب المنصور الذي بنى للحرس النصراني حسبما يذكره مارمول كنيسة كانوا «يذهبون إليها للاستماع إلى القداس»[2].

بينما تجمع الرواية العربية على اقتران بناء أول كنيسة بعهد المأمون الذي طلب مساعدة عسكرية من ملك قشتالة فرناندو الثاني لاسترجاع سلطته من أحد منافسيه وهو الأمير الموحدي يحيى بن الناصر (624 ـ 627هـ)، فاشترط عليه الملك القشتالي، في حالة انتصاره واستيلائه على مراكش ـ أن يبني كنيسةً للرعايا المسيحيين، وأنه إذا أسلم أحد من هؤلاء فعليه أن يردُّه إلى إخوانه، في حين أن من تنصر من المسلمين فليس لأحدٍ عليه من سبيل «فأسعفه في جميع ما طلب منه»[3]. وبمجرد ما تمت له الغلبة، دخل مراكش مع النصارى، «فضربوا بها نواقيسهم»[4].

واستفادت الجاليات المتوسطية من جو التسامح، فعرفت أحياء المدن التي

(1) المعجب، ص: 435 وفيها يذكر بأنه لم تشيد أية كنيسة في المغرب.
(2) مارمول: م.س. ص: 50 ولم نعتمد الرواية المسيحية الخرافية التي ترى أن إعدام المبشرين Les frères Mineurs كان وراء تشييد أول كنيسة بالمغرب.
(3) ابن أبي زرع: م.س. ص: 250 ـ 251. الناصري: م.س. ص: 237.
(4) ابن خلدون: العبر، طبعة بيروت 1981، ج6، ص: 143. ابن العربي الصديق: طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب، مجلة تطوان 1956، ص: 154.

كانوا يقطنونها بناء عدة كنائس. ففي سبتة على سبيل المثال، كان الأسقف الذي يقوم بدور المرشد الروحي هو الأسقف الإيطالي Hugo حوالي 624هـ/ 1227م[1]. ومن المحتمل أن يكون لكل جالية أسقفيتها حيث كان لكلٍّ من تجار جنوة وبيزا كنائس خاصة[2].

ومهما كان الأمر، فمن الواضح أن التنظيم الكنسي في عصر الموحدين بلغ أوجه، ووجّهت البابوية ـ مستفيدةً من جو التسامح ـ عدة أساقفة نذكر من بينهم الأسقف الشهير Agnellus الذي تنعته الوثائق اللاتينية بأسقف فاس، أعقبه Lupus الذي تشير إليه إحدى رسائل البابا إنوسنت الرابع، وهي رسالة تتضمن دعوةً منه إلى الرعايا المسيحيين لالتزام طاعته في كل القضايا الروحية[3]. أما الأسقف الذي أعقب Lupus فهو Branch الذي بقي على كنيسة مراكش إلى حدود 1289م[4].

وإلى جانب السماح ببناء الكنائس، سمحت السلطة الموحدية للبعثات التبشيرية بممارسة نشاطها سواء في المدن الداخلية التي كان يقيم فيها الجنود وقادتهم، أو داخل الأحياء التي تقيم فيها الجاليات في ضواحي المدن الساحلية. وفي هذا الصدد بعث البابا هنوريوس الثالث Honorius III إلى البعثات التبشيرية طالباً منهم ـ تسهيلاً لمأموريتهم ألا يحلقوا لحاهم، وأن يتزيوا بزي المسلمين[5].

ولا نستبعد أن تكون الأسقفيات المنبثة في المدن التي استقر فيها التجار المسيحيون في الساحل، نقطة انطلاق النشاط التبشيري في مدن المغرب الداخلية، شفيعنا في هذا الاستنتاج ما شهدته سبتة من نشاط تبشيري قامت به جماعة دانييل Daniel سنة 624هـ/ 1227م[6].

---

(1) Dufourcq: Les relations... p: 109.

(2) Mensage: Loc, op, cit, p: 5.

(3) Maslatrie: Loc, op, cit, p: 15. Lettre du Décembre 1246 (Supplements et tables).

(4) Godard: Description et histoire du Maroc, p: 368.

(5) Maslatrie: Loc, op, cit, p: 9.

(6) مارمول: م. س. ص: 51.

من كل ما سبق يتضح أن الوضعية الدينية للجاليات المتوسطية المسيحية كانت محترمة ولا يكدر صفوها أي عائق. أما الآراء التي أنكرت هذه الحقيقة فسنناقشها في حينها بعد التعرض للوضعية الاقتصادية ـ الاجتماعية.

الوضعية الاقتصادية ـ الاجتماعية للجاليات المسيحية:

كما حظيت الجاليات المسيحية بوضعية دينية تغمرها روح التسامح، فإن فئةً منها تمتعت بوضعية اقتصادية تُحسد عليها، ويتعلق الأمر بفئة التجار، ولا غرو فإن مناخ الحرية، وحسن سياسة التعامل التي حرص الخلفاء الموحدون على جعلها سُنة، استقطبت العديد من تجار البلدان المتوسطية الذين فضّلوا الاستيطان في المدن المغربية الساحلية تسهيلاً لمهامهم باستقبال السفن ونقل البضائع.

وكان هؤلاء التجار ينقسمون إلى فئتين[1]:

- التجار الذين يتوفرون على رأس مال ثابت ولا يقيمون في المغرب بل يعينون وكلاء عنهم.
- التجار الذي لا يملكون رأس مال، ولكنهم يشتغلون لصالح الفئة الأولى، ويكتفون بالربح الذي يحققونه ببلاد المغرب، ويقيمون في إحدى المدن المغربية، وهذه الشريحة هي التي تهمنا.

وقد حرصت الجمهوريات التي ينتمون إليها على عقد معاهدات تجارية مع المغرب لفائدة تجارها. ففي سنة 581هـ/ 1186م، عقدت جمهورية بيزا معاهدة للتجارة والسلم مع السلطان الموحدي أبي يوسف يعقوب المنصور لمدة 25 سنة تضمن حرية تجار بيزا في كل من سبتة، وهران، وبجاية وتونس[2].

ولم يجد هؤلاء أدنى حرج في الاتصال بالخليفة الموحدي لعرض كل ما يعترض عملياتهم التجارية من صعوبات، يؤيد ذلك الرسالة التي بعثها قنصلهم إلى

(1) Gisele: Loc, op, cit, p: 273.

(2) Maslatrie: op, cit, p: 28.

أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بتاريخ 19 ماي 1181م حول الصعوبات التي أعاقت عدداً من تجار مدينة بيزا الإيطالية من أجل استخلاص جلود بجاية[1].

ولا يساورنا شك في أن المسؤولين المغاربة لم يديروا ظهرهم لكل هذه النداءات، ولا زالت الأرشيفات تحتفظ بمقتطف من قانون مدينة مرسيليا الخاص بتنظيم تجارة المرسيليين في بلاد المغرب، وخاصة تجارة الخمور في كل من سبتة ووهران وبجاية وتونس[2]. كما وصلتنا عقود تجارية على يد كتاب عدول تهم تجارة جنوة في عدد من المدن المغربية[3].

وفي إطار البحث عن الوضعية الاجتماعية لهؤلاء التجار يتبادر تساؤل آخر وهو: أين كانت تسكن هذه الجاليات، وكيف كانت ظروف إقامتها؟

إذا كانت المصادر العربية لا تجيب سوى بإشارات باهتة، فإن الوثائق اللاتينية التي نشرها Maslatrie تكشف النقاب عن الكثير من القضايا التي تهم مقر إقامة هؤلاء التجار، وتنظيماتهم في أحيائهم الخاصة.

تستعمل المصادر العربية مصطلح «فندق» للتعبير عن مقر إقامة التجار المسيحيين[4]، وهو نفس المصطلح المستعمل في الوثائق اللاتينية[5]. لكن يجب ألا يفهم من هذا المصطلح أنه يعني الفندق بمفهومه المتداول، بل يشير إلى حي كبير أو «مدينة» صغيرة تقع بجوار المدينة المغربية أي في ربضها، وهذا ما يفهم من كلام ابن عذاري الذي جاء في سياق حديثه عن تجار جنوة سنة 636هـ/ 1238م: «وذلك أنهم لما وصلوا إلى سبتة في مراكبهم برسم

(1) Ibid, p: 27.

(2) Ibid, p: 89.

(3) Ibid, p: 88.

(4) يقول ابن عذاري متحدثاً عن نتائج الفتنة التي أثارتها إحدى الجاليات الإيطالية في سبتة ورد فعل السلطة المغربية: «وانتهبت أموالهم التي في فنادقهم أي انتهاب» أنظر البيان: القسم الموحدي، ص: 350.

(5) Maslatrie: Loc, op, cit, p: 89, 91. (Introduction historique).

محاولات تجارتهم، فاجتمع منهم في ديوانها وربضها عدد كثير...»[1].

ولا شك أن هذه «المدينة» الصغيرة كانت تحتوي على كل المرافق الضرورية التي تخدم حاجيات التجار. فعلاوةً على المتاجر الكبرى، وجدت الدكاكين الصغرى، ومقر سكنى القنصل، كذا الكنيسة، والمقبرة والفرن ومكان كاتب العدل وربما حمام عمومي[2].

ومن الجدير بالذكر أن كل طائفة من الطوائف المسيحية كان لها (فندقها) الخاص، فهناك فندق خاص بتجار مرسيليا، وآخر لتجار جنوة... وثمة إشارات إلى وجود فندق بسبتة خاص بتجار مرسيليا في سنوات 624هـ/ 1227م و625هـ/ 1228م و636هـ/ 1236م و656هـ/ 1255م[3].

والراجح أن مختلف هذه الجاليات المتوسطية كانت تقيم في المدن الساحلية مثل سبتة، والجزائر، وبجاية، وبونة، وتونس، والمهدية، وسفاقس، وقابس، وجربة وطرابلس. وقد عد أحد الباحثين 15 مركزاً لإقامة هذه الجاليات[4].

ويستشف من خلال أحد فصول قانون بلدية مرسيليا لسنة 625هـ/ 1228م نوعٌ من التقنين الخاص بتجارة الخمور حيث ينظم هذا الفصل كيفية بيع الخمر المرسيلي في بجاية وسبتة. ونعلم من خلال ذلك أنه كان بإمكان تجار مرسيليا بيع هذه المادة في المدينتين بالجملة أو التقسيط في متاجر خاصة. ومن بين مجموع المتاجر هناك تلك التي كانت تباع فيها الخمرة للمسيحيين فقط، بينما كان يباح في متاجر أخرى بيع هذه السلعة للمسلمين كذلك[5].

وداخل «المدن الأوروبية» وجد قنصل مقيم لا تفصح الوثائق عما إذا كانت

---

(1) ابن عذاري: م.س. ص: 50.

(2) Gisele: Loc, op, cit, p: 278. Maslatrie: p: 80-90 (Introduction historique).

(3) Maslatrie: Loc, op, cit, p: 80, 90.

(4) Mensage: Loc, op, cit, p: 6.

(5) Gisele: Loc, op, cit, p: 276.

إقامته لها طابع الاستمرارية أم لا. وقد يسمح قانون مدينة مرسيليا لسنة 656هـ/ 1255م بالظن أن القناصل لم يكونوا ملزمين بالبقاء بكيفية دائمة في كل موانىء المغرب[1]. وفي بعض الحالات كان القنصل يعين لمصاحبة السفن القادمة إلى بلاد المغرب. أما في سبتة فإن القنصل كان يعين لمدة سنة، ويقوم بمساعدته نقابيون ورؤساء الحرف. وكان يقسم بالانجيل بعدم السماح بإقامة مكان للعادة في الفندق الذي يشرف عليه، وكذلك عدم بيع الخمر الأجنبي إلا بعد نفاذ الخمر المرسيلي، ولا يسمح بكراء الحوانيت للأجانب بدون استشارة. وعلى العموم فإن التزاماته تجلت فيما يلي:

1 ـ الدفاع عن مصالح الجاليات المسيحية سواء تجاه السلطات المحلية أو الأجنبية.

2 ـ إدارة الحي أو المدينة الصغيرة التي تقيم فيها الجالية.

3 ـ القضاء بين الرعايا[2].

وإلى جانب القنصل، وجد داخل «الحي المسيحي» موثق يتم تعيينه من طرف القنصل ويأتمر بأوامره كما يشهد على ذلك عقد محرر بتاريخ فاتح نوفمبر 633هـ/ 1236م. ولم تكن مهمة الموثق تنحصر في تحرير عقود التجار فقط، بل كان يستطيع تسجيل قرارات قضاء القنصل أيضاً[3].

كما لا يستبعد وجود قضاة تحت إمرة القنصل. وتحتفظ الأرشيفات بوثيقة قرار تعيين قضاة من طرف محافظ مدينة بيزا يهم التجار المقيمين في تونس بتاريخ 8 ماي 637هـ/ 1240م[4].

من كل ذلك يتضح أن «الأحياء المسيحية» كانت تمثل مستقرّات صغيرة تعيش

---

(1) Ibid, p: 279.

(2) Ibid, p: 279.

(3) Ibid, p: 280.

(4) Maslatrie: Loc, op, cit, p: 35.

فيها الجاليات المسيحية، وتمارس أنشطتها وديانتها بكامل الحرية، وكأنها في بلدانها الأصلية. لكن هل يمكن القول أن هذه الأحياء أو المدن الأوروبية كانت تتمتع بحصانة ديبلوماسية؟

لا شيء يمكننا من الإجابة بدقة على هذا التساؤل. لكن يبدو أن جهاز الدولة المغربية العسكري والأمني لم يكن يسمح لهم بالدخول إلى هذه المدن سوى بأمرٍ من السلطة المغربية[1].

بقي بعد هذا إثارة نقطة هامة تخص الوضعية الاجتماعية لفئة من الجاليات المسيحية وهي فئة العبيد الذين اضطرتهم ظروف الأسر إلى العيش في المغرب.

فمن المعلوم أن القرصنة البحرية كانت تشكل إحدى موارد بيت المال، فضلاً عن أن العبيد كانوا يمثلون يداً عاملة هامة. أو ليسوا هم الذين ساهموا في بناء مدينة مراكش بالسرعة التي أرادها مشيدها؟[2] ثم إن مسألة افتداء الأسرى تحمل أكثر من دلالة على المغزى الاقتصادي من عمليات القرصنة.

ونرجّح انطلاقاً من نصوص تاريخية وفقهية أن مراكش وغيرها كانت تزخر بفئة الرقيق التي أثارت عطف العالم المسيحي، فقامت بعض الجمعيات بتقديم مشروع إلى البابوات يقضي بجمع التبرعات والصدقات لتحرير العبيد من بني جلدتهم. وقبل البابا إنوسانت الثالث المشروع، واتصل بالخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور في الرسالة المؤرخة بـ 8 مارس 1198م يطلب منه فيها تسهيل مأمورية البعثة الدينية التي أرسلها لافتداء الأسرى[3].

وقد رد الخليفة الموحدي رداً ايجابياً حيث رحب بالبعثة وأمر بتسهيل مهمتها في جميع أنحاء البلاد، وتمكنت من افتداء 186 أسير في تونس سنة 1201م، وفي

(1) Gisele: Loc, op, cit, p: 279.
(2) مارمول: م.س. ج2، ص: 47.
(3) Mensage: Loc, op, cit, p: 18, 44.

سنة 1210م بلغ عدد المحررين 220، وفي الجزائر 340[1].

إن هذه النصوص وغيرها ـ تنهض شاهداً على روح التسامح التي تعامل بها المغاربة مع الجاليات المسيحية وقد أعطى هذا التسامح ثماره حتى أن قائد الحاميات المسيحية في مراكش في عهد الخليفة الموحدي المنتصر عرف بأنه «أكبر صديق للمسلمين». وإذا كان قد حاربهم بعد مغادرته المغرب فقد سخر نفسه للتوقيف بين الجانبين[2]، بينما نعت الأسقف Lupus بكونه زعيم الصداقة القشتالية الموحدية[3].

ولعل روح التسامح هاته هي التي جعلت البابا إنوسانت الرابع لا يكتفي فقط بتوجيه رسائل الشكر والتقدير إلى الخلفاء الموحدين، بل إنه حث المسيحيين على التوجه نحو المغرب، وطلب من الأساقفة الإسبان والبرتغاليين حماية ممتلكاتهم في المناطق التي يمرون منها[4].

ولا شك أن ارتفاع عدد سكان الجاليات المسيحية بالمغرب ينهض دليلاً آخر على جو التسامح الذي كانوا يرتعون في ظله. والأرقام التي قدمها Brosselard لها أكثر من دلالة[5].

ومن الإنصاف القول أن هذا التسامح كان متبادلاً: فالمجاعة التي عصفت بإفريقية سنة 542هـ/ 1147 ـ 1148م جعلت كثيراً من عائلات النبلاء تطلب مساعدة

---

(1) Ibid, p: 18-19.

(2) Dufourcq: Les relations... p: 41-42.

(3) Ibid, p: 59.

(4) Dufourcq: op, cit, p: 59.

(5) أعطى Mensage نقلاً عن Brosselard إحصاءات تهم الجاليات المتوسطية رغم أنها تخص القرن 14، فإن لها دلالات على تدفق هذه الجاليات على المغرب العربي وهي كما يلي:
تلمسان: 4000 نسمة منهم تجار وصناع وجنود.
تونس: 4000 شخص كانوا يشتغلون في طبخ الخبز 700 دكان.
أنظر: Mensage: Loc, op, cit, p: 6.

روجار الثاني، واللجوء إليه، فما كان من هذا الأخير إلا أن رحب بعرضهم.

أما الزواج بين المغاربة والعنصر النسوي من الجاليات المسيحية، واعتناق الإسلام فهو أكبر دليل على ثمار هذا التعايش السلمي وهو ما سنتطرق إليه لاحقاً. فهل يمكن بعد كل هذا أن نجد ما يناقض مقولة التعايش السلمي ومناخ التسامح؟

خرافة الاضطهاد الموحدي:

إذا كانت الصورة المشرقة التي قدمناها عن وضعية الجاليات المسيحية المقيمة بالمغرب الموحدي تبين إحدى الواجهات الرائعة من صور التعايش السلمي، فهل ذلك يعني أننا نعفي الموحدين من كل زلة أو خطأ في سياستهم تجاه المسيحيين؟

إنصافاً للحقيقة والتاريخ، نشير بداية إلى أن بعض الكتابات الأجنبية استغلت بعضاً من هذه «الزلات» لتنفخ فيها وتجعلها قناةً ومعبراً لمقولة الاضطهاد الموحدي. فمنها من صبت جام غضبها على المرابطين والموحدين في آن، مدعيةً أن المسيحيين فقدوا في عهدهم كل نفوذ[1]. ومنها من أشفقت على المرابطين، ولكنها لم ترحم الموحدين معتبرةً عصرهم قمةً للاضطهاد الديني[2].

إلا أن المتأمل في الحكمين السابقين، يلاحظ أنهما مبنيان على نصوص منتقاة سبق تبيان خطئها[3]. وقد كفانا Godard مؤونة الرد على خرافة الاضطهاد الموحدي، فقد بين - في جرأة تخالف ما دأب عليه بعض الباحثين الأوروبيين - وانطلاقاً من حجج دامغة ما يبين عكس هذه المقولة، منها أن عبد المؤمن بن علي (558هـ) رد إلى القنصل الممثل لتجار مدينة بيزا الإيطالية كل الأسرى الذين احتجزوا بعد كارثة بحرية وقعت في سواحل المغرب

---

(1) Dufourcq: La vie quotidienne, p: 75.

(2) خوسي اليماني: م.س. ص: 36.

(3) أنظر هامش رقم 4. وهذا هو النص بحرفيته، يقول المراكشي: (ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ أن قام أمر المصامدة، ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة) المعجب ص: 435.

العربي سنة 562هـ/ 1167م. كما عقد معاهدة تجارية معهم، وكذا مع تجار جنوة في نفس السنة، هذا بالإضافة إلى قرائن أخرى يذكرها هذا الباحث تفند مزاعم الاضطهاد الموحدي(1).

وتنهض الرسالة التي بعثها رئيس أساقفة بيزا الإيطالية سنة 578هـ/ 1182م إلى ابنه يوسف قرينةً أخرى على سياسة التسامح التي نهجها الموحدون إذ تقول إحدى فقرات الرسالة: «إننا أصدقاؤكم، ونود محالفتكم وصداقتكم قبل كل شيء»(2). وإذا كانت هذه شهادةً تتعلق بالخلفاء الموحدين الأوائل، فكيف بالعهد الموحدي الأخير الذي عرف قمة التسامح كما تشهد بذلك رسالةٌ أخرى بعث بها البابا إنوسانت الرابع تحدث فيها عن الحرية التي نعمت بها الكنائس في عهد الخليفة الموحدي السعيد (640هـ/ 646هـ)(3). وقبل ذلك في عهد الخليفة الرشيد كان البابا غريغوار التاسع قد بعث برسالة مؤرخة بـ 27 ماي 1233 يشكره فيها على ما أظهر من عطف وتكريم للأسقف ورجال الكنيسة في مراكش(4). وثمة رسائل بابوية أخرى تصب في نفس الاتجاه(5).

لكننا نجد في نفس الوقت بعض الرسائل البابوية حول بعض أعمال البطش التي قامت بها السلطة الموحدية ضد بعض المبشرين ـ إيطاليين وفرنسيين ـ فإذا صحت هذه الأخبار التي لا تذكرها المصادر العربية، فأقل ما يقال لرد هذه التهمة أن البابوات تبنوا موقفاً ينم عن التعصب والتشنج، ولم يتفهموا هذا الحدث من خلفيته «الدفاعية»، إذ إن المنكل بهم تجاوزوا الحدود التي تسمح بها الشريعة، فتحولوا من مبشرين إلى محاربين للملة الإسلامية حيث أثر عنهم أنهم كانوا يسبون

---

(1) Godard: Loc, op, cit, p: 355-356.

(2) Ibid, p: 356. ds: Biblithèque de l'école chartes - 2è serie TV, p: 139. Pièces tirées des archives de Florence.

(3) Dufourcq: op, cit, p: 59.

(4) خوسي اليماني: م.س. ص: 38 De Genival: Loc, op, cit, p: 80. Maslatrie: Loc, op, cit, p: 11-12.

(5) خوسي اليماني: م.س. ص: 38 ـ 39 Maslatrie: p: 10.

علناً ويشتمون العقيدة الإسلامية والقرآن والرسول (ص)، مما شكل تحدياً صارخاً لمشاعر المغاربة، وجعل هؤلاء المبشرين يضعون أنفسهم في عداد التيار «الانتحاري» الذي يتحمل كامل المسؤولية إذ إنها - رغم تحيزها أحياناً - تنحو باللائمة على هذا التيار المتطرف، وتحمله مسؤولية العواقب التي جناها[1].

ويمكن كذلك فهم هذه «الاضطهادات» انطلاقاً من بواعثها «الدفاعية» من خلال سرد بعض أمثلة عمليات الشغب والسطو التي قامت بها بعض الجاليات التجارية. ففي رواية لابن عذاري[2] أن بعض التجار الإيطاليين، ومن مدينة جنوة بالذات، انطلقوا من الأحياء المخصصة لسكناهم بضاحية سبتة للقيام بعملية هجومية على المدينة سنة 636هـ/ 1234م، غير أن حاكمها أبا العباس اليانشتي كتب إلى جميع القبائل يستنفرهم «فقتل النصارى في ذلك اليوم قتلاً ذريعاً، وقطعوا تقطيعاً... وانتهبت أموالهم في فنادقهم أي انتهاب، والتهبت النار في سلعهم وسلاحهم كل التهام».

ولعل في هذا الحدث الذي تؤكده المصادر المسيحية ما يقوم دليلاً على «عدالة» الموقف المغربي. ورغم ذلك فقد عوضت السلطة الموحدية خسائر الموحدين عبر معاهدة سلمية، مما يدل على حسن النية، فضلاً عن قمة النضج الديبلوماسي.

وإذا كانت هذه الحالات الاستثنائية تمثل نقطاً سوداء في نسيج التعايش السلمي بين المغاربة والجاليات المسيحية لأسباب ترجع إلى التهور أحياناً، وعدم الالتزام بالحكمة والتعقل أحياناً أخرى، فإنها لم تؤثر في صيرورة هذا الاتجاه السلمي الذي تجذّر بفعل سياسة التسامح التي نهجها الخلفاء الموحدون. وقد وقف الباحثون الغربيون المنصفون منبهرين أمام هذا المد من التعايش السلمي بين الجانبين، فمؤرخ الحياة الدينية للغرب الإسلامي الأستاذ

---

(1) De Genival: Loc, op, cit, p: 71-72. Mensage: Loc, op, cit, p: 15. Godard: Loc, op, cit, p: 359-260.

(2) البيان: القسم الموحدي، ص: 350.

Alfred Bell نوه بروح التسامح التي نهجها المغاربة تجاه المسيحيين من تجار وجنود وغيرهم[1]، بينما وقف باحث آخر[2] مندهشاً أمام العلاقات الطيبة التي ظلت بين مسيحيي ومسلمي افريقية بعد الغزو النورماندي لساحل افريقية، الشيء الذي ينهض قرينةً على استمرار فصل هام من علاقات التعايش الأخوي بين المغاربة و«ضيوفهم» من الجاليات المتوسطية، وهو ما يتأكد من خلال رصد الأدوار التي قاموا بها والتأثير المتبادل الذي أدى إلى الانصهار الاجتماعي وهو ما نتطرق إليه الآن.

ثالثاً: دور الجاليات المسيحية والتأثير المتبادل بينها وبين المسلمين المغاربة:

لا تفصح النصوص بما فيه الكفاية عن مختلف الأدوار التي لعبها المسيحيون في المغرب العربي. غير أن الإشارات الباهتة التي نعثر عليها بصعوبة تكشف تعدد تلك الأدوار وأهميتها في تاريخ المغرب، ويدل على مساهمتها الفعالة في نسج خيوطه.

وقد قدر لقادة الحاميات العسكرية وجنودهم أن يتركوا بصماتهم في التاريخ السياسي للمغرب، كما أن التجار المسيحيين أثروا في الحركة الاقتصادية التي عرفها المغرب الموحدي، بينما ظل وجود الجاليات المتوسطية ـ بخبرتها وتقنيتها ـ يساهم في تطوير المجتمع المغربي.

فعلى الصعيد السياسي تشير المصادر إلى أن قادة الكتائب العسكرية ـ وهم في الغالب إسبانيون قشتاليون ـ أخذوا يتدخلون في أمر بيعة الخلفاء الموحدين وترشيح هذا الخليفة أو ذلك. وفي هذا الصدد ذكر ابن أبي زرع[3] عند تعرضه لخلافة عبد الواحد الرشيد: «أخذ له البيعة كانون بن جرمون السفياني، وشعيب أخو قاريط الهسكوري ومرقسيل قائد الروم» وهي إشارة واضحة إلى الدور الرئيسي

---

(1) Coup d'oeil sur l'Islam en Berberie. p: 70.

(2) Cuoq: L'eglise de l'Afrique du Nord du 2è au 12è siécle Paris 1984, p: 170.

(3) روض القرطاس: ص: 254.

الذي أصبح يلعبه قادة الجند الرومي.

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء، بل إن النساء أصبحن يحشرن أنفسهن في أمر البيعة، ويبرز في هذا الشأن اسم حبابة زوجة الخليفة الموحدي المأمون وهي جارية مسيحية لعبت دوراً طلائعياً، واستخدمت النفوذ والرشوة من أجل ترشيح ابنها الصغير الخليفة الرشيد الموحدي[1]، وذلك بمساعدة شخصية مسيحية أخرى هي شخصية «سانشو» الذي لعب هو الآخر دوراً هاماً في التاريخ المغربي[2].

ولا يستبعد أن تكون هذه الحاميات العسكرية قد تدخلت في شؤون القبائل من أجل استقطابها أو إبعادها عن التحالف مع الخليفة كما لاحظ ذلك أحد الباحثين[3]. وليس صحيحاً في نظرنا ـ طبقاً للنصوص السابقة ـ ما يراه Mensage من أن هذه الحاميات لم تتدخل في النزاعات داخل الأسرة الحاكمة أو القبيلة[4].

ونعتقد أن هذا الدور السياسي الخطير الذي اضطلعت به الحاميات القشتالية يعزى إلى اختصاصها بأهم المناصب العليا، بل حتى الوظائف السرية[5]، مما أتاح لها فرصة التحرك داخل الساحة السياسية.

ولم يقل الدور العسكري شأناً عن الدور السياسي، فقد وظفت الحاميات العسكرية القشتالية وغيرها من الجنسيات المتوسطية الأخرى لخنق التمردات وقمع الثورات. ولا زالت الأدوار التي لعبها «الروبيرتر» في هذا المجال تثير الاعجاب[6] حتى أن موته كان بمثابة موت للدولة المرابطية، وإعلان لقيام

---

(1) روض القرطاس: ص: 254.

(2) Dufourcq: op, cit, p: 43-44-57.

(3) Ibid, p: 60.

(4) Mensage: Loc, op, cit, p: 10.

(5) Ibid, p: 7.

(6) Deverdun: Marrakech des origines à 1912 TI. Rabat 1952, p: 138.

دولة الموحدين.

ولم يتقاعس الخلفاء الموحدون بدورهم عن استعمال الكتائب العسكرية القشتالية لاستئصال شأفة الثوار. ففي روايةٍ لابن خلدون[1] أنّ الخليفة الموحدي المرتضى حارب الثائر علي بن بدر بواسطة قائد نصراني يدعى Dunlop. وبفضل المساعدة التي تلقاها الخليفة الرشيد تمكن من كسب معركة مراكش لصالحه[2].

كما حدث أن المعركة الفاصلة التي وقعت بين الموحدين والمرينيين، استأسدت فيها الفرق القشتالية. ويعزى الفضل لقائدهم ابن القمط الذي تمكن من وضع حد لحياة الأمير المريني أبي معرف محمد[3].

أما دور الإيطاليين في هذا المجال، فقد برز ممثلاً في جاليتهم التجارية حيث قدم تجار جنوة مساعدةً بحرية للخليفة الموحدي الرشيد للدفاع عن سلا[4].

وفي الميدان الاقتصادي، يظهر دور التجار المسيحيين واضحاً، إذ إنهم ساهموا في زيادة مداخيل الدولة الموحدية عن طريق استخلاص هاته الأخيرة للرسوم الجمركية المفروضة على البضائع والتي بلغت نسبة 8٪[5]. كما لعبوا دوراً هاماً في توفير الحاجيات التي لا يتوفر عليها المغرب، وشكلوا في نفس الوقت مصدراً لتسويق المنتوجات المغربية وخاصة الذهب والعبيد التي كانت تدر ربحاً هائلاً على المغرب.

ولا سبيل لانكار دورهم - على الصعيد الاجتماعي - في نقل كثير من

(1) العبر، ج6، ص: 350.

(2) ابن عذاري: م.س. ص: 284.

(3) مجهول: الحلل، ص: 173.

(4) Dufourcq: op, cit, p: 55.

(5) Mascarello: Quelques aspects des activités Italiennes dans le Maghreb Medieval: R.O.H.M. p: 66.

العادات والاحتفالات التي تأثر بها المغاربة كما سنبين فيما بعد. وساهموا أيضاً في ميدان العمران حيث يذكر مارمول[1] أن الأسرى المسيحيين هم الذين حفروا الأربعمائة قناة التي كانت تصب في مبنى تجميع المياه، وهو مبنى نال إعجابه. كما ساهموا في بناء التحصينات نذكر منها حصناً عند جبل زرهون يسمى قصبة النصراني[2]. كما ساهموا في بناء المرافق العامة مثل الحمام الذي بناه «ابن أخت ألفونسو» بمدينة مكناسة[3].

ومعلوم أن بعضهم اشتغل بالطب، وقدم مساهمات اجتماعية للمغاربة ولو أن أدويتهم وطريقة معالجتهم كانت تحوم حولها بعض الظنون من طرف العامة[4]. أما في ميادين الزراعة والفنون، فإنه كان للحضور المسيحي فضل على المجتمع المغربي[5].

يبقى علينا في نهاية هذه المداخلة أن نتساءل ـ كنتيجة حتمية لعيش الجاليات المسيحية على أرض المغرب العربي ـ عن التأثير المتبادل بين الطرفين.

من المؤكد أن البعثات التبشيرية لم تستطع أن تؤثر في المجتمع المغربي سوى بشكل محدود جداً ونتيجة عوامل سياسة[6]. ومن المحقق أن المغاربة لم يستسلموا لدعاية الإيطاليين أو الفرنسيين، بل ظلوا صامدين أمام (تسرب الانجيل) على حد تعبير أحد الدارسين[7]. وفي الوقت ذاته، لم ينجم عن هذا اللقاء بين الإسلام والمسيحية فوق أرض المغرب نهاية حتمية للمسيحية كما زعم ذلك أحد

---

(1) مارمول: م.س. ص: 47.

(2) حركات: المغرب عبر التاريخ، طبعة البيضاء 1965، ج1، ص: 244.

(3) ابن غازي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، طبعة الرباط 1952، ص: 10 ـ 11.

(4) ابن الزيات: كتاب التشوف إلى رجال التصوف. طبعة الرباط 1984، ص: 323.

(5) Lagardere: Loc, op, cit, p: 11.

(6) مثل تنصر أبي دبوس ومحمد العادل الموحدين بدافع من اليأس والغضب.
انظر: ابن الصديق: م.س. ص: 154.

(7) Mensage: Loc, op, cit, p: 50.

الباحثين[1]، يشهد على ذلك ما سبق ذكره. فقد حافظ كل شعب على المعتقد الذي كان يؤمن به، وإن كان بعض الأفراد من هذا الجانب أو ذاك قد تحول من دينه الأصلي إلى الديانة الأخرى، لكن دون إكراه أو تعنت.

وإذا كانت الواجهة الدينية شكلت أهم الأبواب الموصدة في وجه التأثير المتبادل، فعلى العكس من ذلك، حدث امتزاج اجتماعي لا ندرك أهميته إلا بالوقوف على النصوص التاريخية التي تشير إلى ذلك. ومن بين مظاهر هذا الامتزاج مسألة زواج المغاربة بالمسيحيات. ويمدنا ابن أبي زرع[2] بخصوص هذا الموضوع بإشارات هامة رغم ندرتها، فيذكر بأن الخليفة الموحدي عبدالله العادل كانت أمه مسيحية من سبي شنترين (بأسبانيا)، وأن أم الخليفة الرشيد كذلك كانت رومية الأصل وتدعى حبابة[3]. كما نفهم من إشارة أخرى وردت عند ابن عذاري[4] وهو يتحدث عن بنات الخليفة الموحدي المأمون ما يدعم هذا الطرح.

وإذا كانت المصادر التاريخية لم تول اهتماماً سوى للأسرات الحاكمة في غالب الأحيان، فإن كتب القضاء والأحكام التي اهتمت بعامة الشعب تكشف عن هذه الظاهرة في أوساط المغاربة حيث نجد في إحدى كتب التراث المخطوط طريقة نموذجية لكيفية تحرير عقود الزواج بين أهل المغرب والمسيحيات في ذلك العصر[5].

وعلى غرار الزواج الذي عكس انصهار المغاربة بالجاليات المسيحية المقيمة بين ظهرانيهم، نلاحظ مظاهر أخرى لهذا الانصهار. ففي إحدى الروايات أن أهل مراكش قحطوا في عهد يعقوب المنصور، فأمر هذا الأخير بالخروج للاستسقاء

---

(1) Cuoq: Loc, op, cit, p: 179.

(2) روض القرطاس: ص: 245.

(3) نفسه، ص: 254.

(4) البيان ـ القسم الموحدي، ص: 276 ويقول فيه ابن عذاري: «وأمهات الذكور والإناث روما».

(5) ابن سلمون: العقد المنظم للحكام (مخطوط) ورقة 28 وجه.

الذي شارك فيه النصارى كذلك[1]، مما يوضح مكانهم ضمن «الأُسرة» المغربية.

ومن مظاهر هذا الانصهار كذلك، إقدام المسيحيين على تعلم اللغة العربية: فتجار جنوة الإيطاليين، فهموا ضرورة تعلم اللغة العربية من البدايات الأولى لنهضتهم التجارية، ولذلك وجد في إيطاليا ديوان قنطي Chencellerie لتعليم اللغة العربية[2].

وبلغ هذا الانصهار ذروته حينما أعلن بعض أفراد الجاليات المسيحية المقيمة في المغرب إسلامهم: فابن الروبيرتر القائد العسكري المشهور كان قد اعتنق الإسلام منذ عصر المرابطين واستمر مع الموحدين[3]. وتخبرنا إحدى الروايات الصوفية في خضم حديثها عن كرامات المتصوف المغربي عبد الجليل أن هذا الأخير وهبت له جبة فأعطاها بدوره إلى نصراني، فما مر على هذا الأخير سوى سبعة أيام حتى (أسلم وحسن إسلامه)[4].

ومن الذين اعتنقوا الإسلام كذلك، شخصية من أسرة ملكية إسبانية يسمى (ابن أخت الفونسو)، أسلم وتسمى بأبي زكريا يحيى، وكانت له مكانة اجتماعية هامة في مكناسة حيث ظل مشهوراً بالحمام الذي بناه في هذه المدينة[5].

ولا شك أن تحول كثير من المسيحيين إلى الإسلام هو ما جعل أحد الباحثين يخلص إلى القول بأن العصر الموحدي كان عصر اعتناق قادة الحاميات العسكرية للإسلام، وقد تبعهم في ذلك جنودهم[6]. ولم تقف البابوية مكتوفة الأيدي. ففي 2 فبراير 624هـ/ 1226م، أبلغ رئيس أساقفة طليطلة بالعدد الكبير من الجاليات المسيحية التي ارتدت عن مسيحيتها، واعتنقت

(1) ابن المؤقت: تعطير الأنفاس، طبعة حجرية، ص: 40.

(2) Mascarello: Quelques aspects des activités Italiennes dans le Maghreb Medieval, p: 75.

(3) Dufourcq: op, cit, p: 46.

(4) ابن الزيات: م.س. ص: 150.

(5) ابن غازي: م.س. ص: 10 _ 11. خوسي اليماني: م.س. ص: 37.

(6) Ibid, p: 46.

الإسلام. ويبدو أن (فرناندو الثالث) ملك قشتالة فطن إلى خطر ردة رعاياه، ولذلك، ولأجل درء هذا الخطر، بين في المعاهدة التي عقدها مع الخليفة الموحدي المأمون أنه يمنع على مسيحيي المغرب التخلي عن ديانتهم واعتناق الإسلام. وبذلك وضع الملك القشتالي نفسه مدافعاً وحامياً للمسيحية في بلاد المغرب[1].

وثمة ظاهرة أخرى نتجت عن هذا الاتصال بين المغاربة والجاليات المسيحية ألا وهي كثرة أسواق الرقيق في كبريات المدن، وانتشار ظاهرة التسري بالجواري المسيحيات[2].

وبالمثل، نجم عن هذا الاختلاط كذلك مشاركة المغاربة للمسيحيين في أعيادهم واحتفالاتهم، فالحسن الوزان[3] سجل رواية تهم عيداً مسيحياً بقيت آثاره إلى عصره، ومؤدى ذلك أن المغاربة كانوا يشاركون إخوانهم المسيحيين في حفلاتهم الدينية ومنها ليلة ميلاد المسيح حيث كانوا يصنعون نوعاً من الثريد المتكون من الخضر المتنوعة ويأكلونه في تلك الليلة «ويضع الأطفال في اليوم الأول من السنة أقنعة على وجوههم، ويتوجهون إلى الأعيان يطلبون منهم الفواكه وهم ينشدون أغانيهم الصبيانية، وفي يوم القديس يوحنا توقد نيران كثيرة من التبن في جميع الأحياء».

واستمرت كذلك عادة مشاركة المغاربة المسيحيين بأحد الأعياد وهو يوم «دانتيسيا» وهو احتفال يكون عندما تبدأ أسنان الطفل في الظهور[4].

والجدير بالذكر كذلك في مجال التأثير المتبادل أن بعض أفراد الجاليات المسيحية تأثروا بالأزياء المغربية. وفي هذا الصدد يذكر ابن غازي[5] أن ابن أخت

---

(1) Ibid, p: 47.

(2) العربي الصديق، م.س. ص: 155.

(3) وصف افريقيا، ج1، ص: 201.

(4) المصدر نفسه، ص: 201.

(5) الروض الهتون: ص: 11.

الفونسو، المذكور سابقاً «أسلم وتزيى بزي الموحدين».

أما في ميدان الفلاحة فقد تركت الجاليات المسيحية القادمة إلى المغرب أثراً إيجابياً في المغرب كما تبين ذلك بعض الفتاوى. وكان للجاليات الإسبانية التي تم ترحيلها إلى المغرب سواء في العصر المرابطي أو الموحدي خبرة كبيرة في العمارة والفلاحة والسقي وغير ذلك. ولهذا السبب، لا نشك في أن هؤلاء أدوا إلى التقدم الفلاحي بالمغرب[1].

وأخيراً من المفيد أن نشير إلى ظاهرة «التحضر» الذي أدخله هؤلاء المسيحيون بواسطة التجارة، وقد مس نواحي الحياة العامة حتى أن مصدراً مسيحياً قال وهو يتحدث عن أنفا «يبدو أنها كانت في القديم محكمة البناء متمدنة متحضرة بسبب تجارة المسيحيين»[2].

قصارى القول أن المغرب شكل أرض لقاء بين مختلف الشعوب المسيحية، ووفر لها كل الظروف الناجحة لممارسة أنشطتها المتنوعة، ولذلك تميزت بوضعية قل نظيرها بين شعوب العالم الوسيط كما تشهد بذلك التفاعلات الحضارية المتبادلة. وإذا كانت الوثائق والنصوص تؤكد على مصداقية طابع التعايش السلمي والتسامح الذي ساد بين المغاربة والشعوب المسيحية، فلا شك أن ما يمكن أن تكشف عنه أبحاث علم الآثار قمين بإزاحة الستار عن جوانب أخرى، وبالإجابة عن أكثر من لغز غامض، وذلك موضوع جدير بالمزيد من الدراسة والبحث.

(1) Dufourcq: La vie quotidienne, p: 238.

(2) مارمول: م.س. ص: 128.

المصادر والمراجع المستعملة

أولاً المصادر:

1 ـ ابن أبي زرع: أبو الحسن علي بن عبدالله. (توفي قبل 741هـ). الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. طبعة الرباط 1972 ـ دار المنصور للطباعة.

2 ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (تونس 732 ـ القاهرة 808هـ). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. تحقيق خليل شحادة، طبعة بيروت 1981، دار الفكر.

3 ـ ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت617هـ). كتاب التشوف إلى رجال التصوف. تحقيق أحمد التوفيق، طبعة البيضاء 1984.

4 ـ ابن سلمون، أبو القاسم بن علي سلمون الكناني (العصر الموحدي) كتاب العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع 6703).

5 ـ ابن عذاري، أبو عبدالله محمد المراكشي (عاش بعد 712هـ). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. القسم الموحدي، تحقيق مجموعة من الأساتذة، طبعة البيضاء 1985.

6 ـ ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج4 (خاص بالمرابطين) تحقيق بروفنسال وكولان، طبعة بيروت 1980 (ط2).

7 ـ ابن المؤقت، محمد بن محمد بن عبدالله المراكشي. تعطير الأنفاس في التعريف بالشيخ أبي العباس ـ طبعة حجرية.

8 ـ البكري، عبدالله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو (شلطيش 405هـ ـ قرطبة 487هـ).

المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب. نشر دي سلان، طبعة الجزائر

1911 (ط2).

9 ـ مارمول كربخال (القرن 10هـ/ 16م)

- افريقيا ج1، تحقيق مجموعة من الأساتذة، طبعة الرباط 1984، دار المعارف.

- افريقيا ج2، تحقيق مجموعة من الأساتذة، طبعة الرباط 1989، دار المعارف.

10 ـ مجهول: كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، طبعة البيضاء 1979، دار الرشاد الحديثة.

11 ـ المراكشي، عبد الواحد (581هـ). المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي. طبعة البيضاء 1978 (ط4).

12 ـ الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبدالله (644هـ/ 714هـ). عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة ببجاية، طبعة بيروت 1979 دار الآفاق الجديدة (ط2).

13 ـ ابن غازي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي (ت919هـ). الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون. طبعة الرباط 1952.

14 ـ الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي. كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. ج2، طبعة البيضاء 1954، دار الكتاب.

15 ـ الوزان، الحسن المعروف بليون الأفريقي (القرن 10هـ/ 16م). وصف افريقيا، ج1، طبعة الرباط 1980.

ثانياً: الدراسات الحديثة

16 ـ إبراهيم حركات (دكتور): المغرب عبر التاريخ، ج1، طبعة البيضاء 1965، دار السلمي.

17 ـ ابن العربي الصديق: طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب. مجلة تطوان، العدد الأول سنة 1956.

18 ـ خوسي اليماني: الكتائب المسيحية في خدمة الملوك المغاربة، ترجمة أحمد مدينة، مجلة دعوة الحق، العدد 5 سنة 1978.

ثالثاً: الدراسات والوثائق الأجنبية:

19 - Bel (Alfred): Coup d'oiel sur L'Islam ou Berberie Extrait de la revue des religions. Janv. Fev. 1917. Paris.

20 - Cuoq (J): L'eglise de l'Afrique du Nord du 2è au 12è siècle. Ed. du Centrion. Paris 1984.

21 - Deverdun (G): Marrakech des origines à 1912. TI Rabat 1959 Ed. T.N.A.

22 - Dufourcq (C): La vie quotidienne au moyen âge dans l'Europe medievale sous la domination Arabe.

23 - Gisele Chauvin: Aperçu sur les relations de la France avec le Maroc des origines à la fin du moyen âge. Hesperis. T: XLIV, 1957, 3è et 4è T, pp: 249-298.

24 - Godard: Description et histoire du Maroc. TI. Paris - Madrid - Alger 1860.

25 - Lagardere (V): Communautés Mozarabes et pouvoir Almoravide en 519H 1125 en Andalus; Studia Islamica, Tome LXVII 1988, pp: 39-119.

26 - Pierre de Genival: L'eglise chretienne de Marrakech au 13è siècle Hesperis 1927, pp: 69-83.

27 - Mascarello (A): Quelques aspects des activités Italiennes dans le Maghreb medieval. Revue de L'occident Musu. et de la medit.

28 - Maslatrie: Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chretiens avec les Arabes de l'Afrique Septentrionale au moyen âge. Paris 1985.

29 - Mensage: Le Christianisme en Afrique. Eglise - Mozarabes. Esclaves chretiens. ALger 1915. Adolphte Jourdan.

30 - Dufourcq: Les ralations du Maroc et de la castille pendant la première moitié du 13è siècle. Revue d'Histoire et de civilisation du Maghreb. Faculté des lettres d'Alger. Juillet 1968.